ج- مع الشيخ يوسف الهدوئي

* الشيخ يوسف

صعد الشيخ عدّة مرّات مع أبيه الروحي الأب نيكيفوروس ليشاركا في القداس الإلهي في قلاية الشيخ يوسف وهذا قبل أن يصير كاهناً في سني رهبنته الأولى، وهي قلاية "ميلاد النبي السابق يوحنا المعمدان" في منطقة القدّيس باسيليوس. وتمَّ التعارف الأول بينهما. كان الشيخ أفرام راهباً شاباً صامتاً، غارقاً في التأملات، خجولاً، من بين الشيوخ هناك. في إحدى المرات سأل الشيخُ يوسفُ الآباء الرهبان حوله:

- "هل يطيع الراهبُ أفرام؟"

- أجابه الأب نيكيفوروس :"نعم يطيع"

"في هذه اللحظة أتاني الفكر أن أرتمي أرضاً، وأقبّل قدم الشيخ يوسف، لأنّي أخيراً سمعتُ كلمةً روحية معزّية". وعندما قيل ما قيل سأل جميعهم:

- "ألعلَّ الراهبَ الشاب ذكيٌّ؟ ألعلّه نشيطٌ؟ وهل يتقن عمل اليد؟"

وُلِد الشيخ يوسف (واسمه بحسب العالم فرنجيسكوس كوتيس) في ليفكس باروس، في أواخر القرن التاسع عشر. كانت معلّمته في المدرسة الابتدائية والدة الأسقف أغسطينوس كانديوتيس، وهي من القرية نفسها. نزل إلى أثينا وهو شاب وعمل في عدة أشغال، مرة طباخاً في قصور الأغنياء في أثينا ومن هنا تعلّم فن الطبخ، وأحياناً أخرى تاجراً صغيراً، وحيناً بائع تذاكر في عربات النقل الداخلي. يروي الشيخ أفرام أنّ الشاب فرنجيسكوس كان يتمتع بضمير نقي حتى في إتلاف البطاقات التي لم يكن يأخذها -كما هو واجب- من الركّاب المستعجلين، بالرغم من أنهم دفعوا ثمنها. وكانت النقود المحصّلة معه دوماً أكثر مما يجب أن تكون. كان يبدو ذا طبع غير هيّاب، قويَ القلب، حاد النظرات وسريع الغضب، وأيضاً حاد الذكاء. وجوده في أثينا واختلاطه مع الناس علّمه معنى المجتمع وحياة الشركة

وزّع أمواله في بداية حياته الرهبانية، وقام بعدة أعمال نسكيّة، معظمها مبالغ به، إلاّ أنها كانت مباركة. يروي عنه الشيخ أفرام إنه حيناً ما ورغبةً منه في التشبُّه بالبار داود التسالونيكي، الذي نَسَكَ فوق شجرة لوز، صعدَ عند الغسق إلى لوزةٍ وراح يصلّي طول الليل. في لحظة ما، على ما يبدو، نعس وغفا. وعندما استفاق، وجدَ كلّ شيء من حوله ناصع البياض، وهو مغطى بالثلج. الأيدي والأرجُل متجمّدة يصعب ثنيها: "آخ، والآن كيف ننزل!" هكذا كان يفكّر ويضحك لما حصل له

استثمر في الجبل المقدّس طبيعته الديناميكية النشيطة، لكي يزاول النسك في قمم الفضائل الرهبانية. لم يساوم على أيّ شيء في سبيل تعلّم الصلاة الذهنية، صلاة الرب يسوع، منهمكاً بها بشغف

صار راهباً بالإسكيم الكبير في كاتوناكيا، في المنسك الهدوئي الذي على اسم "بشارة العذراء"، وقد سامه راهبٌ شيخ صالح هو الشيخ أفرام الكبير. عندما تعرّف بالشيخ أرسانيوس وارتبط به نهائياً، منذ ذلك الحين لم يتركا قلاية من قلايات الجبل إلاّ وزاراها، ومارسا أنواعاً كثيرة من النسك، من أجل أن يحصلا على ما تصبو إليه نفسيهما

عندما عرفه الشيخ أفرام الكبير، كان قد انسحب منفرداً مع جهاداته النسكيّة الكبيرة مُقيماً بهدوء في منسك القدّيس باسيليوس، الواقع أعلى كاتوناكيا، على علو يقارب ٦٠٠ م. كنيستهم مغطّاة بصاج الحديد، ومكرَّسة على اسم ميلاد النبي السابق. قلاليهم صغيرة جداً، كلّ منها بعيدة عن الأخريات، وذلك للمحافظة على أكبر قدر من الهدوء، مزوّدة بمدفأة مصنوعة من أحجار الطوب الطينيّة وذات قاعدة خشبية، وكان السقف مصنوعاً من صاج الحديد. من العجب كيف تمكنوا من نقل مواد بناء إلى تلك الصخور البعيدة، المنعزلة،

والشديدة الانحدار. عند أقدام تلك المرتفعات الصخرية، في الأسفل، هناك بعض الصخور الضيقة كملاحات، وبعدها يأتي البحر الإيجي القاتم الزرقة. هناك تشعر أنك معلّق في الهواء متأرجحٌ، كأن المكان عشّ سماوي صخري لا ماء فيه

بعد أن رقد الشيخ أفرام الكبير بالرب، الأب الروحي للشيخ يوسف، عاش هذا الهدوئي مع كلّ من الشيخ أرسانيوس والراهب يوحنا والراهب أثناسيوس الذي كان أخاً له في الجسد أيضاً. كان عملهم الذي يقتاتون منه، حفر صلبان خشبية، التي كان الأب أثناسيوس يبيعها جائلاً في الجبل المقدس، مستعملاً مردودها في تأمين معيشتهم

"أنت تبحث عنّي وأنا عنك"

ككاهن تقبّل الشيخ دعوة الشيخ يوسف له لإقامة الذبيحة الإلهية في منسك القدّيس باسيليوس. وبعد القداس طلب منه أن يعترف مُصرِّحاً بأفكاره. رتّبوا له لقاءً في أمسية مسائية. صعدَ الشيخُ إلى المنسك، وجلس على أحد المقاعد الحجرية خارجاً قرب المضافة الصغيرة، متلمساً سرّ الطبيعة الليلية القاسية البريّة، وأخذ يصلّي حتى منتصف الليل منتظراً الشيخ يوسف إلى أن ينهي قانونه الشخصي ويأتي لملاقاته. وأخبر الشيخ لاحقاً: "المدة خمس ساعات كاملة لم تتوقف الدموع عن السيلان من عينيّ". في اللحظات نفسها كان الشيخ يوسف يفكّر وهو مثقل بأفكار اليأس وخيبة الأمل: "مالي وللاهتمام بالأب أفرام؟ هذا أيضاً سيكون كالآخرين، راهباً عادياً سطحياً!". أخيراً أرسل أخاه، الأب أثناسيوس، ودعاه إليه

اعترف له الشيخ بثلاث حالات روحية سامية كان قد عاشها. وعندما انتهى، قال له الشيخ يوسف مُعرباً عن رأيه: " أنت كنت تبحث عني وأنا عنك!" إنها علاقة روحية عميقة بدأت من الآن. ومن حينها صار الشيخُ يدعو الشيخَ يوسف أباهُ الروحي. فكان يعترف مِراراً: "لم أُحِبَّ إنساناً في العالم ولم أَهَبْ آخر مثلما أحببته وخِفتُهُ"

بدأ يصعد بتواتر إلى منسك القديس باسيليوس، لكي يقيم الذبيحة الإلهية لدى أبيه الروحي. كلّ يوم ثلاثاء وخميس وسبت وأحد حوالي نصف الليل، كان يعلّق في زنّاره قنديل زيت صغيراً والعصا في يمينه والمسبحة في يده اليسرى وينطلق صاعداً إلى منسك القدّيس باسيليوس لمدة نصف ساعة

شيئاً فشيئاً ترك الصلوات التي كان قد رتّبها واختارها بنفسه لكي يكون في حالة من اليقظة الروحية، وانشغل بالمناجاة "أيها الرب يسوع المسيح، ارحمني". بهذه الصلاة أيضاً راح يتمّم خدماته الصلاتية كافة، كما علّمه المعلّم. (هكذا دعا الجميع الشيخ يوسف احتراماً وتكريماً له). لم يكن لدى الأب نيكيفوروس أيّة ممانعة، بل بطواعية وطيبة خاطر كان يرسله إلى المعلّم

كان برنامج الشيخ يوسف تقريباً كما يلي: يتناولون طعام الغداء ثم ينامون لثلاث ساعات حتى غروب الشمس. وبعد فنجان من القهوة المساعد على اليقظة تبدأ سهرانيّتهم بواسطة صلاة المسبحة حتى منتصف الليل. إذ تبدأ خدمة القداس الإلهي في تلك الكنيسة الصغيرة. يا لها من قداديس مملوءة بالنعمة حقاً! كيف كان يتذكّرها الشيخ بتأثر شديد! بعد الليتورجية الإلهية كانوا يرتاحون حتى يطلع النهار، حيث يبدأون عملهم اليدوي ليُنتجوا ما يقتاتوا به

حافظ الشيخ يوسف على هذا الترتيب كحدقة العين. لم يكن يقبل بتغييره مهما كانت الظروف والأحوال، لأنه قد يؤدّي إلى التبديل في جوهر الصلاة. وهكذا كان يغلق البوابة الخارجية بعد طعام الغداء ولم يكن يستقبل أيّ زائر، فقد وَجَبَ عليه أن يرتاح لكي يكون مستعداً للسهرانية الليلية. حتى إنّه صاح مرة بأحد القادمين في وقت متأخّر: "حتى لو كنتَ ملاكاً، في مثل هذه الساعة لا أستطيع استقبالك"

كان الشيخ يقول: "أقمتُ شهرين بقرب الشيخ يوسف فوجدتُ السعادة. في إحدى الأمسيات كنتُ أصلّي واقفاً في قلايتي، في لحظة ما وكأن الحائط انفتح أمامي، ورأيت ثلاثة أشخاص يدنون إلي، فتحت نفسي يديها وعانقت المتوسط فيهم. لا أستطيع أن أعبّر عمّا شعرت به. إحساسي الروحي أنبأني أنه كان المسيح ويرافقه ملاكان. حالما صحوتُ وعُدتُ إلى نفسي، تناولت فانوسي الصغير وانطلقتُ في نصف الليل إلى منسك القدّيس باسيليوس. أثناء الطريق شعرتُ أن الشياطين تحيط بي فتملكني الخوف والرعدة. وصلتُ في النهاية مضطرباً قلقاً مقطوع النَّفَس لاهثاً. قلتُ للأب أثناسيوس: "لُطفاً أخبر الشيخ الرئيس أنّي أريد مقابلته حالاً!"، وهو تقبّلني متفهّماً في الحال. فجلستُ، "ما بكَ؟": قال لي. "انتظر يا أبتي قليلاً لألتقط أنفاسي أولاً، وسأقول لك". قصَصتُ له ما حدث معي. فانتصب الشيخ وعانقني وقال لي بفرح كبير: " يا بُنيّ هذه هي، الدرجة الأولى من النعمة. من الآن فصاعداً لديك حُلّة روحية مختلفة، آفاق أخرى، طعام روحيّ آخر، صلاة أخرى مختلفة تنتظرك. رهبانٌ كثيرون ينتظرون لسنوات حدوث هذا الأمر، وقليلون هم الذين يتذوّقونه. أما أنت فقد أعطاك الله إيّاه بسرعة كبيرة!"

فيما بعد، وكان ما يزال مواظباً على الصعود إلى منسك القدّيس باسيليوس لكي يزور الشيخ يوسف، وجدهُ مرة في حالة من الصلاة الممتلئة نعمةً. أما ذاك فكان يضمُّ رأسه، متكأ على صدره يتلو صلاته. هكذا اعتاد الشيخ يوسف أن يصلّي لأبنائه. لقد كان في حالة من الهذيذ أو الانخطاف

- "يا أبتي، هل ستأكل الكعك وحدك؟" همس الأب أفرام، راغباً في أن يتذوّق ما كانت نفس الشيخ يوسف تتذوقه. لكنه شعر كأن أمراً يحثّه على الصمت، من خلال ضغطة خفيفة من مرفق الشيخ

بعد قليل عاد الشيخ يوسف إلى ذاته، توقف عن الصلاة، تنهّد بحلاوة وانشراح وقال: "يا بُنيَّ، ليست نفسُك نقيّة وحسب، بل أنت تتمتع بطهارة وعفة كبيرتان". وهذا ما رآهُ في صلاته

*الطاعة

استسلم الشيخ لطاعة الشيخ يوسف ومحبته من كلّ قلبه. وكان يتقبّل توجيهاته بكلّ فرح.كان يكشف عن أفكاره الشريرة وحالته الروحية بكلّ دقة روحية. وأخذ يصعد وينزل ليلاً إلى منسك القدّيس باسيليوس من دون انقطاع، وحتى بعد عام ١٩٣٩ عندما أقام الشيخ في كهوف إسقيط القديسة حنّة ليقيم له القداس الإلهي ويناوله الأسرار الطاهرة. إلاّ أنه قام أيضاً بأتعاب أخرى بنيّة طيبة ملؤها العرفان بالجميل. وهكذا عندما هجر الشيخُ يوسفُ منسك القدّيس باسيليوس ونزل إلى اسقيط القديسة حنّة، حاول أن يبني قلاية مع كنيسة صغيرة في تجويف صخري، مستعملاً الخشب المتوفّر محليّاً في الجبل، وطوباً قرميدياً من تراب أحمر. كان الشيخ أفرام في هذه الأثناء يحمّل تراباً أحمر من منطقة كاروليا كلّ يوم اثنين ويذهب به إلى اسقيط القديسة حنّة، حيث كان الشيخ أرسانيوس يصنّع الطوب القرميدي. ولكن من أجل أن يكون حراً من التزاماته بقلاية القدّيس أفرام، حيث كان الشيخ بروكوبيوس يصنّع أختاماً لخبز القرابين، اهتمّ أيضاً بأن يهيئ مخاريط خشبية للأختام بعدد مضاعف عمّا كان يقوم به من قبل. وهكذا كان يوفّر كلّ يوم للشيخ بروكوبيوس أختاماً كافية ليحفرها، وكان يوفّر للشيخ أرسانيوس ما يكفيه من الرمل لصنع القرميد. محبّته للآخرين وطاعته ساعداه على العمل بشكل مضاعف

* * *

واظب الشيخ أفرام باستمرار على استدعاء صلوات وأدعية الشيخ يوسف، وكان يعلّم الجميع أن يطلبوا أدعية شيخهم الروحيّ.

كتب له مرّة أحد الإخوة في وقت لاحق:"ما هذا السرّ الذي لا يمكن وصفه أو التعبير عنه، يا شيخيَ الروحيّ ؟ ما هذا الرباط المقدّس الذي يربط المبتدئ مع شيخه الروحي! كنتم تقولون لنا داعين: "باسم إله شيخي الروحيّ يوسف"، وكنتُ أشعر أن كلّ طيّبات العالم وحلاواته كامنة في هذه العبارة"

* * *

كان الثلج ينهمر والرياح الشمالية الصقيعية تعصف. حينها كان عليه أن يذهب إلى اسقيط القديسة حنّة ليقيم القداس الإلهي لهم. كان منخَفَض كاتوناكيا الصخري "يثني مساميرا من شدّة البرد". شدَّ نفسه متمنطقاً بجبَّته الرثّة وانطلق بإصرار وتصميم. في أول الطريق راح الانحدار الصاعد الحادّ لكاتوناكيا والرياح المتجمّدة يحفر حتى أعماق رئتيه اللاهثتين. وفي السهل العالي، كان الثلج يلطمه ورياح الشمال الباردة تحاول تعريته من ثيابه. تجمّد برداً، لم يَعُد يحتمل إطلاقاً. حوّل مسيره ونزل مقطوع الأنفاس في الطريق الممهدة إلى المنزل. دخل إلى المَطبخ وإذا به يسقط أرضاً فاقد الوعي. كان الأب بروكوبيوس يتابع عمله اليدوي قلقاً عليه فاهتم به وقام بما وَجَبَ. بعد أيام أخبر الشيخ يوسف بما جرى. أما هذا فلم يلجأ إلى ممالقته إطلاقاً. "يا أبانا، لو أنك ضغطت على نفسك وبذلت جهداً أكبر، لكان الله أعانك ولكنتَ أتيت إلينا" أجابه بهذا بحزمٍ محافظاً على رباطة جأشه

* * *

لقد كان رباطهم الروحيّ قوياً وحقيقياً وعميقاً إلى حدٍ كبير، وكذلك كانت الحالة الروحية للشيخ يوسف عظيمة وسامية، بحيث أن الله كان يختم كلامه مصدّقاً عليه. كثيراً ما كان الشيخ أفرام يقبّل يده منطلقاً إلى كاتوناكيا طالباً أدعيته. "انطلق" كان يقول الشيخ يوسف من قلبه، "انطلق وسترى". "لقد اغتنيتُ في الصلاة والنعمة"، هذا ما يقوله الأب أفرام عندما كان يتذكّره بتأثّر. "هيّا، اذهب الآن" كان يقولها بفظاظة وخشونة، عندما يكون قد أحزنه بأمرٍ ما. "جفاف، تخلٍ روحيّ"، كان الأب أفرام يتذكّر هذه الأمور معترفاً والمرارة تغمره

* * *

عندما أرادوا أن يغادروا المتّائيين، لينضمّوا إلى الفلورينيّين (نسبة إلى الراهب فلورينيس، وهذان هما الفريقان الأهم لأتباع التقويم القديم)، كانوا على وشك صياغة نصّ مخطوط. وبينما كان الأب أفرام يقوم بأعماله اليومية في كاتوناكيا، رأى أنّ عبارة في النص عليه تغيير صياغتها، لأنها لم تكن صحيحة بالشكل الذي كتبها الشيخ يوسف. بعد عدة أيام ذهب ليقيم القدّاس كالعادة. قال له الأب الشيخ يوسف بعد القداس الإلهي: "(أبونا)، انتبه، هناك فكر ما يفصلك عني". دُهش الأب أفرام مستغرباً، وراح يحاول تذكّر شيء ما. بعد أن فكّر ملياً ليتذكر، تذكّر أخيراً هذا الفكر وتعجّب من الأمر

* * *

حدث مرّةً، وكأي إنسان أزعج الشيخ الروحي يوسف بأمر ما، وضايقه بالفعل. فطلب المعذرة والغفران، إلاّ أن الشيخ الروحي لم يلنْ. "اذهب ولا ترجع، إن لم أرسل لإستدعائك" هذا ما قاله له. مرّت عدة أيام، موتٌ روحيٌّ. أخيراً أرسل الأب أثناسيوس ليدعوه للمجيء. خلال القدّاس الإلهي ظلّلته النعمة الإلهية من جديد وفرح

بعد أيام وأيام من الجفاف الروحي والقلق. فيما بعد ذكر هذا التضايق للشيخ الروحي. "حسناً، يا بُنيَّ" قال له بلهجة أبوية طيّبة، "ألم تشعر أني عانقتُك وقبّلتُك بالروح؟"

* * *

مرّة، حينما كان يخدم القدّاس، ولدى الإعلان مع البركة "السلام لجميعكم" فكّر بشيء من الحيرة والارتباك: "طيّب، أنا نفسي أنال البركة والنعمة من الشيخ الروحي، كيف لي الآن أن أباركه؟". "**أنا الذي يبارك**" سمع هذا الصوت من بطرشيله، وفهم أنّه الروح القدس، إنّه هو الذي يبارك من خلال الكاهن خادم السرّ

*يوانيكيوس

كان الشيخ يوسف يفخر بحالة الأب أفرام الروحية الطيّبة، وكان يقول: "أنا جعلته هكذا". إلاّ أنه في الوقت عينه كان يُنهض نزعته الجهادية ويثيرها بطرق مختلفة، وكان يقوم بهذا بشكل خاص من خلال تذكيره: "يوانيكيوس ينتظرك!"

عاش الراهب يوانيكيوس في إسقيط القديسة حنّة، وهو تربٌ للشيخ الأب أفرام. إنه رجلٌ ذو قامة طويلة وقوي البنية، كان مجاهداً كبيراً في الطاعة. تعرَّف إلى الشيخ يوسف وصار تلميذاً له. مرّةً كان يوانيكيوس يحدّق في الشيخ يوسف مطوّلاً، ثم قال له: "أيها الشيخ الروحيّ، أنا لم يسبق لي أن رأيتُ الله، فقط رأيتكَ أنت"

مرّ بعض الوقت ورأى الشيخ يوسف حلماً. رأى أنه كان يتمشّى على طريق ذاهباً إلى مدينة ما، وقبل أن يبلغ المدينة، رأى بيتاً صغيراً ريفياً فائقَ الجمال. تساءل: "لمن هذا البيت العجيب الفائق الجمال؟" فسمع صوتاً يقول: "هذا البيت الصغير كان لك، لكنه أُعطيَ هبةً ليوانيكيوس". من خلال هذا الحلم أعربَ الشيخ يوسف عن رأيه بأن يوانيكيوس سيجد النعمة أو سيموت

بالفعل، بعد مدة قصيرة أصاب ذاك الإنسان القويَ البنية داءُ السلّ الفتّاك، لأسباب وراثية. ثم خلال وقت قصير انهارت صحّته ومات. عندما كان في أواخر حياته، كان الشيخ يوسف يعزّيه ويشدّده في تلك الآلام الفظيعة التي كان يعانيها، طالباً إليه أن يصبر، ليكون إكليله أكثر إشراقاً، ذاك الإكليل الذي سيناله من المسيح. مرة، رآه الراهبُ الذي كان يخدمه مضطرباً. عندما سأله عن السبب، طلب إليه المريض أن يُبعد امرأة ما قال إنها موجودة في الغرفة. إلاّ أنه هدأ في الحال وقال: "اتركها، اتركها، إنها العذراء الفائقة القداسة!" فسأله الراهب: "وكيف أدركت أنها العذراء، أيها الأب يوانيكيوس؟" فأجابهُ: "قلتُ لها أن تقول "إفرحي يا والدة الإله..." وقالت القطعة كلها. ثم سألتها أيضاً، متى سيأخذني الله إلى جواره، فأجابتني: "عندما هو يريد". وبعد ذلك رقد بالرب

يذكر الشيخ يوسف مراراً قصة يوانيكيوس للأب أفرام، وذلك ليقوّي عزيمته في الجهاد، قائلاً له: "جاهد، أيها الأب أفرام، يوانيكيوس ينتظرك" وبالفعل، كان الشيخ الروحي يتكلّم بإعجاب وحماس عن يوانيكيوس

*حالات من النعمة

كان الشيخ يوسف يشجّعه، وينصحه، ويدعمه بالأعمال والأقوال، وطالما منحَه السلام والطمأنينة بحضوره المبارك، إلاّ أنه أبداً لم يكُنْ يشير له إلى الطرق الروحية التي تسلك فيها نفسُهُ. اعتاد أن يقول له: "تقدَّم وأنا سأتبعك وسأنتبه إليك مُتتبّعاً خُطاك. بالدموع وجدتَ النعمة، وبالدموع تابع طريقك". هو نفسه، الشيخ

يوسف، مع كونه عاملاً مختبراً مُخضرماً في الصلاة الذهنية، صلاة يسوع، لم يفرضها على تلميذه، لهذا أكّد الشيخ أنه لم يُمارس الصلاة الذهنية بأصولها، بالرغم من اقتنائه لخبرتها حيناً ما

كان الشيخ أفرام يتواجد في إسقيط القديسة حنّة ، في قلايات الشيخ يوسف، كضيف. بحسب برنامج الشيخ يوسف كانوا يبدؤون صلاة السهرانية بصلاة المسبحة منذ ساعات المساء، قُبيل غروب الشمس. مرة، وعندما كان يعمل قانونه الصلاتي، أخذ يسمع أصوات ضجيج من هنا وهناك، من أشغال الآباء في إسقيط القديسة حنّة الذي كان قبالتهم في الجوار. يخبر الشيخ أنّه فيما هو يحاول جاهداً أن يركّز على الصلاة وأن يتجنّب التشويش وتشتت ذهنه الحاصل بسبب الضجيج، شعر **أن ذهنه دخل إلى قلبه** وغاب عن محيطه، وهكذا تابع قانونه من دون انقطاع أو تشتُّت. عندما أنهى قانونه وعاد إلى حالته الطبيعية، شعر ثانية بالضجيج الذي لم يزل مستمراً، فتعلّم مما جرى وأدرك ما هي الصلاة الذهنية

* * *

بدأت الحالات الروحية السَّامية تحدث في خلال وقت قصير، كما سبق وأشرنا. ظللَّت الأبَ أفرام نعمة إلهية غنيّة ورفعته إلى هناك، حيث الذين سبق لهم وتذوَّقوا هم فقط أن يُدركوا ما يجري: "ذوقوا وانظروا..." (مز ٣٣:٩). كان الشيخ الروحي يوسف مِراراً ما يقول له: "يا بُنيَّ، إنك كما كنتَ تتقدَّم، كذلك الآن لوحدك ستجد النعمة، ولكن لن تستطيع المحافظة عليها"، وحيناً آخر قال له وهو مملوءٌ فرحاً، لكن يخالطه الوعي والفهم أيضاً: "إنك تسرع في الركض كثيراً وإني لأخاف عليك. آخرون يقضون حياتهم كلها في النسك ولا يَصِلون إلى تذوّق هذه الحالات الروحية لديك!" أما التلميذ فقال ببساطة:" أيها الشيخ، إن منحني اللهُ أن آكل لحماً، أأطلب منه بالأحرى أن يعطيني فاصوليا؟"

* * *

"الروح القدس لا يُرى في جوهره، إلاّ أن نعمته هي التي تُرى"، هذا ما علّم به الشيخ. كانوا يرون النعمة بحيويّة وبشكل ملموس محسوس، حيث كانت تملأ الكنيسة والغرفة. كانت الدموع تجري غزيرة كالنهر، والنعمة تملأ القلوب والهيكل. في أكثر من مرّة ظهر الطفلُ الإلهي فوق الصينيّة المقدّسة على المذبح. في ذلك الحين، عند تقديس القرابين المكرَّمة، بُلّغ الشيخُ بما يلي: "ابن لله ووارث مع المسيح". إنّها لحرارة روحية رهيبة. أما المعلم، الشيخ الروحي يوسف، فقد واضَعَهُ وذلّله بجملة لطيفة هامساً: "إنك تركض سريعاً يا أبانا". لكنه في الوقت عينه كان يفخر به: "لا أعتقد أن هناك قدّاسٌ إلهي في كلّ الجبل المقدّس أفضل من هذا ". كنيسة القلاية، المغارة المنعزلة المهجورة في إسقيط القديسة حنّة، لا تزال تفوح بالطيب حتى الآن

* * *

في تلك الفترة وبينما كان جالساً على مقعده البحريّ غارقاً في عشق الصلاة في سَكينة الليل الكاتوناكيّ ذي الطابع النسكي، اخذ يسمع آية اشعياء النبي (٦٢:٥) تنبع من أعماق نفسه: "كما يفرح العريس بعروسه، هكذا يفرح الربُّ بكَ". حينها ترك صلاة يسوع "أيها الرب يسوع المسيح، ارحمني"، لكي يصرخ بالروح قائلاً: "يا يسوع، يا عريسي، يا ختني، إرحمني". "في تلك اللحظة كنتُ أطير" – وبالفعل كان يرى في أحلامه مراراً وتكراراً أنه كان يطير بخفّة وطواعية كالعصفور – كان يقول في أواخر حياته: "في تلك الفترة كنتُ ملاكاً. أين

لفكرٍ شريرٍ أن يدنو منّي، حتى لو أردتُ ذلك. لقد كانت النعمة تدفعه عني بعيداً. كان في داخلي نورٌ إلهي. وكنت أقول أحياناً للشيخ الروحي مازحاً: "لماذا أيها الشيخ أقوم بإتمام خدمة الصلاة الخاصة بي، ما دمت أتممتُها في نومي؟". كان يستمرّ الكلام الداخلي ينطق بالصلاة فيَّ حتى أثناء النوم. "أنا نائم لكن قلبي مستيقظ ساهر" (نشيد الإنشاد ٥:٢). لقد كان الشيخ أفرام يتمتّع بنعمة الصلاة إلى درجة كبيرة

* * *

ذات مرة، أخذ يرى أمراً غريباً مختلفاً في الصلاة. أمراً جعله يشعر أن شيئاً صالحاً سيأتي عليه. وكان هذا يتكرَّر لوقت طويل. بعد مدة تقارب ستة أشهر نضج الأمر. امتلأ في النهاية نعمة وشعر أن نفسه تطلب أن تخرج، أن تطير عالياً. تشبَّثت يداهُ بالأشياء التي حوله، تضايق مرتعباً، وأخيراً عاد إلى نفسه. في اليوم التالي حصلت الأمور ذاتها لكن بدرجة أشدّ. حاول ثانية أن يتمالك نفسه، لكنه لم يستطع. قال مناجياً نفسه "أما الآن وقد ضَلَلنا حيث ضَلَلنا، فكّر بالانطلاق والعُتق، اذهب حيثما تريد". "صعدت نفسي إلى أعالٍ تَصعُب رؤيتها وأخذتْ تمجّد الله"، قال هذا لنا وهو متأثرٌ بعمق من تذكر هذا الأمر ومن خفقان القلب الذي حصل له. " لا استطيع التعبير عمّا شعرتُ به"، تابَعَ لاهثاً من متابعة الكلام. هل يا ترى عاش ثانية بتذكار الأمور التي لا يُعبّر بها؟

* * *

بالرغم من كلّ هذا، كان يُطيل في الصلاة أكثر وأكثر. كان يذكّرنا بالآية: "الذين يأكلونني أيضاً يجوعون، والذين يشربونني يعطشون" (حكمة سيراخ٢١:٢٤). كانت الصلاة مطلبه ومراده الوحيد. كثيراً ما كان يرى في نومه الملكَ قسطنطين، محرّر مقدونيا، والعائلة المالكة. مرة، قدَّمت له الملكةُ، بعد أن دنا منها باحترام وإجلال، قطعة من الشوكولا. أما ذاك فشكرها ولفت انتباهها إلى أن قطعة الشوكولا سيأكلها وسينتهي الأمر. لكنه تابع متضرّعاً: "أريد أن تعطيني صلاة" إلى أن سمع صوت الملكة تقول متعطّفة: "سأعطيك، سأعطيكّ". لم يكن يعتبر هكذا أحلاماً عَرَضيّة وبلا معنى

*تجارب

ولكن التجارب من جهة أخرى لم تكن سهلة خفيفة. كان الشيخ يوسف يعلّم قائلاً: "هل أخذت حالة روحية تنعم بها؟ انتظر التجارب بسرعة. هل لديك تجارب تزعجك؟ إنَّ التضرُّع إلى الله قريب منك".

* * *

مرّةً، أحضروا له بعض البصل لسدّ احتياجات البيت. إلاّ أنه كان رديئاً جدّاً، لدرجة أن الأب أفرام المتعالي والمتطلب بعض الشيء انزعج واغتمّ. لم يشتُم الذين أتوا به إليه، لكنّه أخذه، وذهب إلى أقرب عجلة ورماه من الصخور العالية إلى البحر في الأسفل. لكن طوال الليل راحت الأفكار الشريرة تحاربه: "ماذا حدث لو كان هناك حيث رميته أسفل، بعض الصيادين أصحاب السفن؟ ألم يكن البحر يبدو حسناً. يمكن أن تكون قد قتلت أحداً (من خلال إسقاط حجر مثلاً)، هَبْ أنه كان ربُّ أسرة؟ بالتأكيد ستتورّط مع الشرطة". عند الصباح لملم نفسه وعقد العزم وانطلق إلى الشيخ يوسف. قال له "...هذا ما حصل معي". أما ذاك الحكيم فسأله مستخبراً:

"هات أخبرني ما حالة الصلاة لديك هذه الأيام؟". "إن الحالة جيدة جداً يا أبتي الشيخ". حينها هزّ رأسه بشكل معبّر وقاطعه: "إذاً، علينا ألاّ ننتظر الصالحات فقط، بل فلنتوقع الأحزان أيضاً"

* * *

في فترة الاحتلال الألماني أُصيب بمرض السلّ. فاعتنى به الشيخ يوسف بأبوة واهتمام كبيرين، مقدماً له الطعام الغني المغذي (خاصة الجبن)، فاستطاع أن يتجاوز المحنة بسلام

* * *

حاربته تجربة لفترة طويلة تختصُّ بعلاقته مع الأب نيكيفوروس، شيخه الروحي. لم يكونا قادرين على التفاهم. أعصابه كانت تتوتّر. حاول لوقت طويل أن يصلح الأمر. أخيراً لان يائساً. إذ لم يَعُدْ قادراً على تأنيب نفسه. في أحد الأيام بينما كان يزاول عمله اليدوي، وكان يشعر بأنّه في وسط شقاء كبير، صرخ إلى الله من أعماقه. والربُّ استجاب للحال وحلَّ المشكلة. فسكن هدوء عميق نفسه وجسده

* * *

كان جهاده في المسبحة وصلاته تلقى لديه صعوبات أيضا. عدة مرات، وبسبب تعبه وخيبة أمله، طلب من "المعلم" أن يعطيه إذناً بالعودة إلى ممارسة الصلوات من خلال قراءة الصلوات الكنسيّة، كسائر الآباء الآخرين. حينها، كانت تعزية الشيخ يوسف وتشديده له، ومَنْحه السلام، حفظته أكثر فأكثر وجعلته قوياً غير متزعزع. قال لنا معترفاً: "كلّ أربع سنوات أو خمس كان يسمح اللهُ بأن اجرَّبَ بموجة من الأحزان والضيق. أفكار من اليأس وخيبة الأمل، تطوّق النفس. حينها لا نكون بحاجة إلاّ إلى الصبر حتى تعبر هذه الموجة عنّا. لا أحد يعلم بأمرك. في الفرح وفي الحزن عليكَ أن تكون هادئاً ومؤدباً بالظاهر، وكأنَّ كلّ شيء على ما يُرام، ضابطاً نفسك داخلياً. لقد شبعتُ من خمور الفردوس الكليّة الحلاوة واعتنيتُ بألاّ يظهر عليَّ هذا. وشربتُ أيضاً من مياه الجحيم الكليّة المرارة، إلاّ أنّي اهتممتُ بألاّ يبتلعني اليأس والقنوط"

* * *

في ذلك الحين أخذ الشيخ الروحي يوسف ينبّههُ قائلاً له: أن الحالة التي هو فيها تترقب تجربة ما آتية إليه، نصحه أن ينتبه أكثر، لعلّه ينخدع برؤية شيطانية كأنها إلهيّة، أو ما شابه ذلك. "وبالفعل عاينتُ نفسي كغزال ذي عين واحدة، يقف عند شاطئ البحر وينظر بعينه السليمة نحو الجبل والغابة، إلى حيث كان يتوقع قدوم الصيّادين، ولكنه لم يَرَهُم الذين اقتربوا منه بقاربهم من البحر واستطاعوا قتله. هكذا حصل معي، كنت أنتظر التجارب من جهة لكن جاءتني من جهة أخرى: أخذوني كعسكريّ إلى الخدمة الإلزاميّة"

حدث هذا قبل عام ١٩٤٠. كان دير اللافرا قد قرّر أن يمحي اسم الشيخ أفرام من سجل الرهبان في الجبل المقدّس، وذلك لكونه قد سيمَ من أساقفة يتبعون التقويم القديم، من دون إذن الدير. وهذا يعني بالنسبة إلى كلّ راهب آثوسي تحريك إجراءات سوقه إلى الخدمة العسكرية. أخذت قوات الشرطة في إسقيط القديسة حنّة تبحث عنه. خبّأه الشيخ يوسف في إسقيط القديسة حنّة لفترة قصيرة، محاولاً أن يظفر بإعادة تسجيله في سجل رهبان دير اللافرا. إلاّ أن الدير بقي ثابتاً على موقفه، فسلمه

وهكذا، برفقة شرطي مسلّح، انطلق الشيخ إلى مدينة أورانوبوليس ثم إلى بيريسو فإلى تسالونيكي. بينما هو في الطريق إلى بيريسو، التفت وتطلع إلى قمة جبل آثوس التي أخذت تغيب في العمق وفكّر بألم: "يا سيّدتي الفائقة القداسة، لا أستطيع أن أصدّق أنكِ ستتركين خروفاً من خرافكِ الصغار ليُبعده الشيطان عن بستانك". وتابع طريقه مصلياً بالمسبحة. كان الشرطي يقول له ساخراً به: "هيا يا أبانا, ضاع منك الآن الجبل المقدس!"، "العذراء موجودة، سيّد حنا" هكذا أجابه الشيخ. إلاّ أنّ ذاك أخذ يهزّ رأسه مشكّكاً، ومنشداً أغنية محبَّبة:

"أما نحن فالضابط النقيب أبٌ لنا، سنراه محارباً في المدينة يوماً ما"

وصلا إلى بيريسو وقطعا تذكرتين للباص وانتظرا الانطلاق. وقبل الانطلاق بدقائق قليلة وصل أحدُ عناصر شرطة بيريسو إلى المحطة حاملاً برقية لشرطي اسمه يوحنا، وهو مرافق الشيخ، معلناً: "برقية تأمر بعودتكم إلى كارييس أنتم ومرافقكم". "إ، يا يوحنا، العذراء لم تتركني، أرأيت!" "إ، كلّ شيء ممكنٌ أن يحدث يا أبانا" أجاب الشرطي منزعجاً، وأخذا طريق العودة إلى الجبل

وإليكم ما حدث: عندما غادر الشيخ أفرام، أخذ الأب بروكوبيوس سَنَد البيت، وهو التصريح الذي تمنحه الأديار الرئيسية في الجبل المقدس للقلالي والمناسك الهدوئيّة التابعة لها، وذهب إلى الحاكم المدني للجبل المقدس، في كارييس. كان ما يزال اسم الشيخ موجوداً في السَّنَد مؤكّداً صفته كراهب. وهكذا طلب الحاكم من مسؤول شرطة كارييس أن يرجعوا ويستدعوا الشيخ، مهدّداً إيّاه بأنه سيشتكي عليه بحجّة جهله القانون، فمن المعروف أنّ رهبان الجبل لا يخدمون العسكرية. علاوة على ذلك، وجد الحاكمُ فرصةً ليؤنّب الشرطي، الذي كان له معه خلافات سابقة.

* * *

إنّ الصعوبة الكبرى التي مرّت به خلال هذه السنوات المباركة كانت، بحسب قوله، أنّه عصى الشيخ يوسف. طبعاً فيما بعد تاب عنها وندم، والأب يوسف الرؤوف سامحه. إلاّ أن الله عاقبه،لم يخبرنا الشيخ ماذا حصل بالضبط. لقد كان السرّ الوحيد الذي احتفظ به لنفسه. "عندما يحلّ عني اللهُ العقابَ الذي فرضه عليَّ، حينها سأخبركم بكلّ التفاصيل"، كان يقول هذا وينتظر سنة بعد سنة. في أواخر عقد الثمانينات أكمل سبعة أسابيع من السنين، كذاك الناسك الذي عوقب، والذي ورد ذكره في السنكسار (سير القديسين، ١٩/تموز، حياة القديس ثيوذوروس إذيسا)، وكان يُقارن حالة هذا القديس بنفسه بطريقة ما. أخيراً قال في وسط فيض النعمة ولكن ليس بالتفصيل. أنّه كان يفكّر أن يستصغر الشيخَ يوسف ويستهين به. وبالنتيجة لهذا الأمر، وجدَ طريقة جيّدة جداً ليحثّ نفسه ويحرّضها على طلبِ رحمة الله بتواتر، وهذا الأمر هو "اكتشاف الله" بحسب تعبير الآباء القديسين

اعترف مرة: "على مدى خمسين سنة، كلّ مرّة كنتُ أذهب إلى قلاّيته في إسقيط القديسة حنّة كنتُ أصنع مطانيّة للشيخ يوسف، هناك حيث سجدتُ له مرّةً من أجل مسألة معصيتي تجاهه. هناك بين الخزّان والدرجات الثلاث التي تقود إلى الغُرف"

* الغيوريّة

من أعظم الدرجات الروحية لشيوخنا، موقفهم الغيوري، الذي كان مُثاراً بشدة في ذلك الحين، كمسألة جديدة للبحث

فمنذ العام ١٩٢٤ وما بعد، دخلَ إلى حياة الكنيسة تقويمٌ كنسي جديد. إلاّ أنّ الجبل المقدس عامة حافظ على استعمال التقويم القديم بدافع المحافظة على التسليم، طبعاً من دون أن يتوقف التواصل الروحيّ الكنسيّ مع

البطريركيّة المسكونية[8] في القسطنطينية أو يُعطّل الانضواء تحت سلطتها. وبالطبع حافظ على علاقاته الطبيعيّة مع كلّ الكنائس الأرثوذكسية. إلاّ أنّ بعض الرهبان الآثوسيين، الذين لقّبوا أنفسهم بالغيورين، بسبب تغيُّر التقويم، قطعوا شركتهم الروحية مع البطريركية ومع سائر رهبان الجبل المقدّس، ممتنعين عن المشاركة في القداديس والأعياد الكبرى في الجبل، ومنقطعين عن التواصُل كنسياً مع بقية الآباء. كانت كاتوناكيا إحدى مراكز الغيورين. كان الشيخ أفرام ينحدر من عائلة رهبانيّة تتبع التقويم القديم، وقد عاش حياة الشركة في قلاية القدّيس أفرام السرياني، حيث كان الآباءُ غيورين

عندما تعرّف على الشيخ يوسف، كان الاثنان مدفوعَين بغيرة روحية، فتقدّما إلى الجماعة المتطرّفة للمثّائيين. والسبب كان أن زعيم جماعة الفلورينيين (المعتدلين)، الأسقف خريسوستوموس كافوريذيس، كان يقبل الشركة في الأسرار ذات التقويم الجديد. فأرسلوا إليه رسالة تشهير ونقد مكتوبة، يعلنون فيها رفضهم لمبدئه، ويلومونه لقبوله أسرار ذوي التقويم الجديد، فهو ممثلا عنهم بالنتيجة

يوماً ما، زار الراهبُ الكاهنُ برثلماوس الشيخَ يوسف وحاول محاورته في شؤون الغيورين، فهو فلورينيٌ. إلاّ أن الشيخ يوسف لم يكن ليقبل، قائلاً له: "دعْكَ من الموضوع، لماذا الدخول في محاورات ثقيلة تجلب الخلافات والإزعاج!". إلاّ أن الراهب الآخر أصرَّ، وحينها وبعد أن غضب الشيخ يوسف من هذا الأمر استعمل معه عبارات قاسية وتحديدات حادة ضدّهم

وبعدها عندما ذهب إلى قلاّيته ليرتاح ويهدأ، أدرك أنّ الشيطان قد امتلك سلطاناً عليه. شيءٌ ما لم يكن يجري على ما يُرام. جاهدَ في الصلاة، وحين نالَ شيئاً من السلام والهدوء، استلقى لكي يرتاح قليلاً. فرأى في غفلته هذا الحلم: لقد كان يجلس على صخرة صغيرة وسط البحر والأمواج تتلاطم. تعجّب، كيف يتواجد في مثل هذا الموضع الخَطِر وفي الوقت نفسه يقع هناك بقربه الجبل القديم الراسخ. ففكّر من ثَمَّ: حالما تقترب الصخرة قليلاً من الجبل، عليه أن يقفز إليه وينجو بنفسه ما دامت الأمواج عاجلاً أم آجلاً ستجتاحه والصخرة. بالفعل، ومنذ أول فرصة، همَّ وقفز فوجدَ نفسه على الأرض اليابسة. "المجد لك يا الله"، قال هذا وصحا من نومه

وأيضاً بينما كان الأبُ أفرام يصلّي من أجل هذه المسألة سمع صوتاً: "في إنكاركَ لشخص فلورينيس أنكرتَ علناً كلّ الكنيسة". وهكذا عادوا ثانية لينضمّوا إلى الفلورينيين، طالبين السماح والمغفرة

وفي وقت لاحق وفيما هو يصلي سمعَ أيضاً: "إنّك تتبع خاضعاً للبطريركية، لا لفلورينيس". هذا الأمر تركه أخرسَ من الذهول. لم يصدّقه. اعتبره ضلالاً. لكنهم بعد حين، وبإلهام إلهيّ عادوا إلى الكنيسة وأراحوا أنفسهم

أما الأب نيكيفوروس فقاوم قليلاً وعارض ما حصل، إلاّ أنّ الشيخ أفرام، كونه لا يحتمل الانفصال عن الشيخ يوسف، أقنعه ضاغطاً، وهكذا عادَ الجميعُ إلى كنف الكنيسة. في ذلك الحين، عام ١٩٥٢، راحوا ليُعيّدوا عيد الفصح مع جيرانهم الدانياليين. "أهلاً ومرحباً بكم، أهلاً وسهلاً بكم، تفضّلوا إلى المقعد الشيوخي، مقعد الشيخ الرئيس. تفضّل أيها الأب أفرام لكي تترأس لنا الخدمة". هكذا استقبلهم الآباء بفرح كبير ومحبة جياشة. "رتّل الدانياليون "إفرحي يا والدة الإله العذراء..." خارجاً، وأنا وحدي كنت داخل الهيكل المقدس، لم أكُن أرى إلاّ السيّدة العذراء. كنت أشعر بنعمة إلهية كبيرة تشملني" اعترف الشيخ بهذا بلهفة وشوق

إلاّ أن الأب نيكيفوروس، الذي تتلمذ عند جيرانه الغيورين، أخذ يتأفف ويعبّر عن انزعاجه الكبير. هنا صار الشيخ في حالة حرجة، صعبة للغاية. صلّى مطوَّلاً، فوجدَ الله أيضاً مجابهاً له. حينذاك خاف واضطرب. استشار الشيخ غفرئيل، رئيس دير الذيونيسيو، وكذلك الأب جراسيموس، ناظم التسابيح. هذان قالا له: "يا أبانا العزيز، أرح شيخك الروحي نيكيفوروس". في الصلاة أيضاً كانت الأمور أصعب. كان يشعر أن الله سيعاقبه.

---

٨ البطركية المسكونية: التي يتبع لها الجبلُ المقدّس وفق القانون الكنسي. (المعرب)

لقد كانت المشكلة: إما الطاعة أو الكنيسة، أيهما سيتبع؟ أُجبر من خلال واقع الأمور أن يتبع الأولى. ونحن ندرك أنّ الطاعة هي أساسُ الكنيسة. بما أن الله مؤسس الكنيسة صار "طائعاً حتى الموت، موت الصليب" (فيل ٢:٨)

أخذ ضميره يعذبه تجاه شخص آخر[٦]. ذاك الذي عَلِمَ أنه ينتمي إلى البطريركية، ذاك الذي عرف أن الكنيسة تعني المحبة والثقة بالدانياليين وسلوكهم الطيّب معه، ذاك الذي عندما كان يتكلّم عن "الكنيسة" كان قلبه يرتكض كطفل يتوق إلى معانقة أمّهِ، ذاك الذي كان يعتبر الشيخ يوسف وأخويّته أهله وناسَهُ، وعشقه. الآن عليه أن يهجرهم! لحُسن الحظ استمرت أفكار "الشك والتردَّد". كان يفكر: "بكليتي، نفساً وجسداً، سأكون دوماً مع الكنيسة. أما بالجسد فمؤقتاً مع الغيوريين، إلى أن يغمض شيخي الروحيّ عينيه إلى الأبد". وهكذا شعر بالسلام. بقيَ صابراً على هذه الحال حتى العام ١٩٧٢، أي ثلاثا وعشرين سنة كاملة. قانونياً، بحسب الترتيب الكنسي والرهباني، لم يُعطِ أي مبررٍ ملامةٍ لأحد. بل بكلّ ثقة وكرامة نفسٍ ترك الغيورين إلى الأبد، وذلك حينما اقتنى أخويّة رهبانيّة خاصة به

*أواخر حياة الشيخ يوسف

رقد الشيخ يوسف بالرب في ١٥ آب من عام ١٩٥٩، في الاسقيط الجديد، في المكان الذي انتقل إليه في آخر خمس سنوات مع أخويّته: الشيخ أرسانيوس، مرافقه الدائم في النسك، والراهب يوسف (الآن هو الشيخ الروحي لدير الفاتوبيذي)، الراهب الكاهن خرالمبوس (الشيخ الروحيّ لدير ذيونيسيو)، والراهب الكاهن أفرام (الشيخ الروحي لكلّ من الأديرة فيلوثيو، كاراكالو، كسيروبوتامو، كوستامونيتو) وأخيراً أخيه بالجسد الأب أثناسيوس

كان الأب أفرام يزورهم باستمرار، وإن كان مُعفى من إلتزاماته الكهنوتية، لأن المختبرَين الجديدَين في الرهبنة، خرالمبوس وأفرام، كانا كاهنين سلفاً. إلاّ أنه في يوم رقاد الشيخ يوسف،في يوم عيد العذراء (رقاد السيّدة)، انطلق إلى زيارتهم في وقت متأخر قليلاً، ولأنه أقام القداس في كاتوناكيا. ذهب متمهلاً، لأنه يعرف أنهم بعد القداس يأخذون قسطاً من الراحة. في إسقيط القدّيسة حنة لاقاه الأب أثناسيوس لاهثاً: "هيّا، لأنّ الشيخ الروحي قد غادر". "غادر؟ لقد قال لي شخصياً إنه سيودّعني، قبل أن يغادر!". رافَقَتْهُ هذه الحيرة والاستغراب إلى اليوم الأربعين لرقاد الشيخ. حينها، وبينما كان يعمل بهدوء، امتلأ المكان رائحة طيب. قام وفتّش كلّ البيت، لكنّه لم يجد أحداً يُشعل بخوراً. هكذا تذكّر: نعم، إن روح الشيخ يوسف تغادر العالم في اليوم الأربعين لرقاده. إنه يُودّع الشيخ أفرام بواسطة رائحة الطيب

منذ ذلك الحين، كان الشيخ أفرام يرى الشيخ يوسف في حلمه. "تقريباً كلّ خمسة عشر يوماً" هكذا قال. عادة كان يراهُ جالساً وسط قاعات استقبال مريحة فاخرة يعزّيه في أحزانه وضيقاته، التي وصلت إلى قمتها في العقد السادس من القرن العشرين قائلاً له بطيبة: "اصبر يا صغيري"، وكان المجاهد أفرام يأخذ بذلك قسطاً من الراحة ثم يتابع

في وقت لاحق، أبدى أحدُ الإخوة الرهبان الملاحظة التالية: "في يوم عيد العنصرة ١٩٨٩، قال لنا اليروندا أفرام إن الشيخ يوسف زاره في نومه. وبعد أن تعانقا بحرارة، قال له وهو ممتلئ فرحاً: "أريد أن أسلّمك كلاماً في علم الكنيسة". لسنوات عِدّة مضت لم يسبق للأب أفرام أن رآه فرحاً إلى هذا الحدّ. وما يستحق الاستغراب في هذا الحدث أن الشيخ لا يعرف كلمة "علم الكنيسة" (الكنائسيّة)

في الواقع، لو أحصيتَ أقوال الشيخ أفرام الحارّة والممتلئة حيويّة، لَوَجدْتَ أنها، بنسبتها الكبرى، مواعظ، وخُطب، وأمثال، ونصائح، ورؤى... كلّها بأسلوب الشيخ يوسف أو متأثرة به. كأخويّة رهبانيّة كان

---

[٩] يقصد ذاته، لكن لا من حيث كونه غيورياً تابعاً للأب نيكيفوروس، بل من حيث توقِهِ الى الانضمام الى الكنيسة الجامعة. (المعرب)

الأب أفرام يعرف فقط تلك الأخوية التي للشيخ يوسف، وكانت هذه نموذجاً لأخويتنا الصغيرة[٧] ، لقد كانت أخويتنا تكراراً حيّاً لأخوية الشيخ يوسف. لقد أبدى أحدُهم وهو على معرفة جيدة من الشيخ، فقال: "الأب أفرام هو نسخة طبق الأصل عن شيخه الروحيّ يوسف"

كان الشيخ يحتفظ بهذه الرسالة أدناه في سجلاّته كتحفة نادرة وبركة من الشيخ يوسف. في أوائل عام ١٩٥٩على الأرجح، وقُبيل رقاده، طلب منه متوسلاً، وهو في الاسقيط الجديد، أن يرسل إليه مكتوباً بخط يده. أراده كبركة منه. فكتب ما يلي:

يا أحشائي الإلهية الشريفة، يا بُنيَّ المحبوب الأب أفرام، لك قبلاتي الأبوية. لك كلّ محبتي، لك دُعائي، الذي فاح بالطيب لبُرهةٍ قبل يومين. الأيام العشرة الماضية كانت ثقيلة جداً، لم آكل شيئاً خلالها. أما الآن ومنذ يومين وصلتني بعض الأدوية من أمريكا، بدأتُ بتناولها ووجدت بعض الفائدة منها. دعنا نرى إلى أي حدّ ستساعد. أنا لا أعتقد أني سأستعيد عافيتي. مهما قاومتْ الأخوية لن تستطيع أن تفعل شيئاً، إنهم فقط يحاولون تأخير مسيرتي للرحيل من هنا. لقد شبعتُ أدوية. جسدي هذا لن يطيب فيما بعد للديدان، سيبقى غير منحل. لن يطيب لهم كطعام. على كلّ حال، إبقَ هادئاً. حتى الآن لم تأتِ الساعة, أوصلْ أدعيتي إلى مجاهدي العزيز بروكوبيوس. أقبّلكم من كلّ قلبي، الوضيع والمتألم. البيروندا: يوسف

٧- (والمتكلّم هو الراهب كاتب السيرة).